في هذه الزّاوية، تفتح «الآداب» نفسها على ذاكرتها، فتعود إلى ماضيها، تكشف مفارقه، وعلاماته المضيئة، وهناته، وملامحَه، وآماله، وإحباطاتِه. وإذ تعود إلى ذلك الماضي، فإنّها تسعى إلى وصل أجزائها، بالاغتناء من تجاربها، دون أن يعني هذا بالضّرورة إيثارَ ما سلف منها على ما خلف، ولا جلْد ذاتِها على ما قصّرتْ في القيام بها أربعين عاماً أو تزيد.

إنّ ذاكرة «الآداب» ليست إلاّ ذكريات جيل عربيّ على مشارف القرن الحادي والعشرين، يكشف أيّامه الماضية ـ بما فيها من عزيمة وشباب وأحلام وجموح ونجاح وإخفاق ـ على خلفه أو مجايليه الجدد. وقد يُعلِّق صاحب المجلّة أو مدير التّحرير أو طرف ثالث على بعض ما جاء فيها، نقداً أو نقضاً أو تثميناً أو إضاءَة. وسوف ترصد «الذّاكرة» أهمّ القصائد، أو المقالات، أو القصص القصيرة، أو الأبحاث النّقديّة، أو التّمثيليّات القصيرة، أو النّصوص الشّاعريّة، الّتي كان لها وقعٌ في السّاحة الثّقافيّة العربيّة آنذاك، أو صار لها مثل هذا الواقع اليوم.

ـ قصيدة «يا عنب الخليل» لعز الدين المناصرة من كلاسيكيّات الشّعر الفلسطيني الحديث، تُرْجمت إلى لغات أوروبيّة عديدة، ويحفظها المئات من أبناء الشعب العربي، ولاسيّما بعد أن غنّى بعض مقاطع منها المغنّي الفلسطينيّ الوطنيّ مصطفى الكرد الذي يقيم في الأرض المحتلّة. وفي عام ١٩٧٤ أصبحتْ بعضُ أبياتها شعاراً لمهرجان المسرح الفلسطيني في القدس. وقد نشرت بعض الصحف مؤخّراً أنّ بعض أبيات القصيدة قد خُطِّطت على يافطات بيضاء في مدينة الخليل، بعد مذبحة الخليل؛ وكان «الخلايلة» قد جعلوها شعاراً في السبعينيّات للمعرض الزراعي لعيد العنب.

والجدير ذكره أنّ مجلّة **الآداب** كانَتْ أوّل من نشر بعض مقاطع من هذه القصيدة عام ١٩٦٦ تحت عنوان «أغنية كنعانيّة». لكنّ الشّاعر عدّلها عام ١٩٦٧ ليضيف مقاطعَ أخرى. وفيما يلي النّصّ الأصلي للقصيدة، يليه النّصّ المعدَّل، تاركين للقارئ الحكمَ فيما إذا كان «يحقّ» للشّاعر أن يجري تعديلاتٍ بمثل هذه الجذريّة والتّوسُّع:

(الآداب)

ذاكـــــــرة الآداب ـ ٥ ـ

أغنية كنعانية

عز الدين المناصرة

- ١ -

تموت مغارة «المسكوب» في «حبرون»
وتحيا في ضلوع الصّخر «بلوطه»
يقدّسها الذين طووا بحاراً سبعة كبرى
وماتوا هاهنا شنقا
رمتهم في الشّطوط السّود عاهرة
تلوك الوهم والموتى
غريب الدّار يبحث في قرار الدّار
تحت ظلالها الوارف
عن الحفر الجليديّهْ
وحول مقابر الموتى
تظلّ تلوب طول اللّيل جنيّهْ
تغنّي اللّيل: أحلام الثكالى والدّجى المأفون
وتلعن من أطالوا اللّيل في حبرون،
وفي حبرون بحّ الصّوت
لم تعد «العتابا» لحننا الأبدي،
يغنّي الصّلّ «هاتكفا» على الحيطان
من أعماق حاديهم يغنّيها
وها غرسوا سيوف الحقد في جنّات رضوان
وما عرفوا بأنّك أنت يا حبرون منيتنا
وليس سوى الدم القاني
وأن نفنى
وإن لم يبقَ كنعاني

- ٢ -

إذا يمّمت نحو «سقائف العروب»
وجئت ترى بقايا شعبك المنكوب
وإنْ هزّتك زرقة كرتك الأغبر
وكنت تنوح قرب مغارة الأموات
تصيح طوال أمسية خريفيّهْ
«أبا الفقراء والأيتام يا إبراهيم»
وهل في القبر من يسمع
صراخ فؤادك المحموم
إذا الأحياء ماتوا في ذرى «أربع»
ومَنْ في صخرة «مكفيليا»
يجيب نداءك المبحوح
إنْ لم يصرخ المدفع؟

- ٣ -

سمعتك عبر ليل الحزن أغنية خليليّهْ
تظلّ تدنّ خلف التّلّ منسيّهْ
تظلّ تصيح يا أربع
إذا ما استنسمت ريحاً بوادي الجوز غربيّة
ويهجرها الصغار وفي لسان الدّهر مرثيّهْ
«خليلي أنت يا عنب»
تظلّ تنوح إنْ ناح اليمام
سواقي الحبّ فوق ضفائر الزعرور
لقد غرست عيوننا في المدى المهجور
وماذا تنبت الأرض الخراب البور
تظلّ عيوننا للواحة السّوداء مصلوبهْ
يقاقي فيها شنار خريفي وفي المذياع
أصوات أثيريّهْ
خليلي أنت يا عنب
فتنتعش الكروم الخضر تورق مرّة أخرى
تعود الشّارة الخضراء منصوبهْ
لتعلن أنّنا نحيا
بظلّ الخضرة الأولى
بيارقك الكبار السود ترجع
عبر ليل الثّور أغنية خليليّهْ
ونحت من ضلوع الصّخر جنّيهْ.

القاهرة

يا عنب الخليل

عز الدين المناصرة

سمعتُكِ عبر ليل النَزْف أغنيةً خليليّه
يردّدها الصغارُ وأنتِ مُرخاةُ الضفائرِ
أنتِ داميةُ الجبينْ
ومَرْمَرَنا الزمان المرّ يا حبّي
يعزّ عليَّ أن ألقاكِ . . . مَسْبِيَّهْ .
سمعتك عَبْر ليل الصيف أغنيةً خليليّهْ
خليلي أنتَ : يا عنب الخليل الحرّ . . . لا تثمرْ
وإنْ أثمرتَ ، كن سُمّاً على الأعداء ، لا تثمرْ!!!

* * *

عنبُ جَنْدليٌّ وإيقاعُهُ فاعلنْ في المزادِ ، وقيل : فعولنْ
لأن الخببْ
يرتوي من نهور الذهبْ .
فيمشي الهُوينا كدحرجةٍ لقناني النبيذ على الطاولات
وفي بيتَ لحمَ التي لا تنامْ
يَحِلُّ عليه التعبْ
ينام على حجرٍ من صخبْ
لترعاه عينُ العناية في حضن بَعْلَ الذي لا ينام .
الخليل تفضّلهُ في الصباح زبيباً ودبْساً إذا كانَ
مَلْبَنُهُ صافياً كبنات الشآم .
سُكّراً كبياض خليليةٍ مثل شمس تغار من الشمسِ
كي لا تغار من الورد ، من حمرة الوجنتينِ
ولين القوامْ .
ونحن ، الأعاريبَ ، نعشقها كرمةً تتجلّى غلالاتها في المنام
نخبئها في السلاسل ، بردانةً ، ثم بين فروع النباتْ
نُمزمزها في الصواني
إذا هَلَّ هذا الصقيع على الكائنات .
ونقطفها في ديسمبرَ ،
في عيد عيسى عليه السلام ، عليه السلام .

* * *

غريبُ الدّار يا حبّي غريبُ الدارْ
يَظَلُّ يلوب في البلد البعيد على حدود النار .
كعاصفةٍ من العلّيق والأشواك والمُرَّار .
تهبّ تُذيب أفئدةً جليديّهْ
وحول مقابر الموتى من الأحياء
تظلّ تحوم طوال الليل ، جنيَّهْ
تغنّي اللّيل ، أحلام الثكالى . . . والدجى المأفونْ
وتلعن من أطالوا الليل يا حبرون!!!

* * *

عنبٌ دابوقيٌّ كرحيق النحل على يافطةٍ بيضاء

عنب دابوقيّ يتدلّى من عُبّ الدالية كقرط الماس
عنب دابوقيّ لا يشبهه أحدٌ في الناس
عنب دابوقيّ يصهل مثل مغنية خضراء
عنب دابوقيّ يتمدد كامرأةٍ في شمس المسطاح.
ألملبن كالزبدة كالشهوة في الخلْوةِ مثل ندى التّين
كحمحمة الأنثى في أطراف الكاسْ.
أثقبُ دائرة الكون إلى المركز حيث اللُّبُّ الحسَّاسْ
أثقبُ بالإزميل الليل، يناديني البلبل من قلب الأحجارْ
ليغنّي لقبور الأجداد
عنب دابوقيّ من جبل الشيخ يناديني:
من جبل الشيخ أيا بَرَّادْ
من دمع كروم الكنعانيين، صلاة الأسياد
من لهفة جدّتنا في الصحراء على الماء
من طين الحِوَّر، تعصرهُ، تنتظر النبع المتدفق
في غربتها
من لبن الدالية سأرضعُ أحرف جدّي
من حقل الآراميْ
من حجر رخامٍ في مقلع جفرا الكنعانية
عنب دابوقيّ
عنب دابوقيّ
عنب دابوقيّ

* * *

سمعتك عَبر ليل الحزن أغنيةً خليليّهْ
تصيحُ طوال جمر الصيف:
أبو الفقراء والأيتام مرّ يقولْ:
هنا يستيقظ الإسفلت والزيتون
هنا يبكون خلف السدر والزقّوم.
متى ترجع!!!
وهل في القبر من يسمع!!!
صراخ فؤادك المحموم
إذا الأحياء ماتوا في ذرى «أرْبَعْ»!!!

* * *

كان نُعيميُّ ينهر بغلته في أول خيطٍ للفجر
كي لا تترضرض أثداء العنب الدابوقيّ
يشرح لي عن سلسلةٍ من نسب لسلالة أجداد الكرمة
كنتُ أرافقه للسوق على ظهر الفرس الشهباء
يتغزل باللون وبالطول وبالطَعْم وبالأسماء
قال خليليٌّ من عصر الإحياء:
أنت خليليّ كالعنب المُرّ المتأخر في النضج
الأصلب عوداً في الوعر وفي الأزمات
تبدأ حين القافلةُ الخضراء
تجأر بالشكوى من ليل حجريّ موبوءْ
وتظل الرمح الضاحك في آخر نفَس للشجرةْ
كان الوسطاءُ سماسرةً يمتصّون النَّصر كدبّورٍ
يمتصّون عروقي وعروق أبي.
كان أبي يتأكد من خاتمة العنب الدابوقي
حتى لا تسرقهُ الخمَّارهْ
حتى لو خسر جهاراً بغلته وحماره
الفاسد يا ولدي يتخثر في الجسد كجيفه
ثم يجفّف نبع القلب.
كان يُداريني حين يداهمني التعب وكان يغطّيني
بعباءته من لسعة برد سُرى الليل.
عنب دابوقيّ كنعانيّ شفّاف كغلاله عذراء
كقناديل بنات النعش الفضيّ
يتدلّى فوق سحاحير الفجر ملاكاً يغرق في النوم
عنب يتدلّى أحياناً مثل الأكفان
حين نبيعك، يمتلئ القلب بحزن أبدي
يمتلئ الجيب بخسران
فبأي طريقٍ نحميك من البهتان!؟

* * *

سمعتك عَبْرَ جمر الصيف أغنية خليليّهْ
تظل ترنُّ خلف التلّ منسيَّهْ
إذا ما استنسمتْ ريحاً بوادي الجوزِ
غربيَّهْ
تظل تنوح ما ناح الحمامُ على سواقي الحب
فوق ضِفائر الزعرورْ
وفي المذياع، أصواتٌ، علاماتٌ أثيريَّهْ:
خليليّ أنتَ يا عنب الخليل الحرّ لا تثمرْ
وإنْ أثمرتَ، كن سُمّاً على الأعداء، لا تُثمرْ!